ملحق (١)
الإسراء والمعراج

اختلاف الناس فى شأن الإسراء والمعراج

لعل الناس لم يختلفوا فى شيء قط كما اختلفوا فى شأن الإسراء والمعراج، ولم يتجادلوا فى شيء قط كما تجادلوا فى أمرهما.. فمن الناس من صدَّق بهما جميعًا، ومن الناس من كذب بهما جميعًا، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج؛ ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معًا، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد؛ ومنهم من قال إنه كان فى اليقظة، ومنهم من قال إنه كان فى المنام.

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه؛ ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج وما يرجح عنده من البراهين. وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن هذا الحادث: ﴿وما جعلنا الرؤيا

التى أَرَيْناك إلاّ فِتْنَةً للناس﴾[1].

ولعل السبب فى هذا الاختلاف أن الناس يأبَوْن إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضَوْن حَكَمًا؛ فهل العقل يصلح أن يكون حَكَمًا فى هذا الأمر الخطير؟.. وقبل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أو لا يصلح أن يكون حكمًا فى مثل هذا الأمر، ينبغى لنا أن نعرف ما هو العقل، وما وظيفته، وما مقدرته، وما حدوده، ومن أين يستمد العقل عمله ومعارفه.

هل العقل يستطيع أن يكون حكماً فى شأن الإسراء والمعراج

العقل هو قوة الفهم فى الإنسان، فهو الذى به يستطيع أن يميز ويقدر، ويقيس ويوازن، ويستنبط النتائج من مقدماتها، ويكوّن الكليات من جزئياتها، ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس، فيحكم - مثلاً - بأن هذا أحمر وهذا أبيض، وهذا حلو وهذا مر، وهذا ناعم وهذا خشن، وهذا طيب وهذا خبيث، وهذا بعيد وهذا قريب، وهذا صعب وهذا سهل، وهذا ممكن وهذا مستحيل.. وهو فى كل ما يُصدر من هذه

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠.

الأحكام متأثر بما تمده به الحواس؛ فما من حُكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر، إما مباشر وإما غير مباشر والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئًا..

فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا مايَصُكُّ مِسْمَعها من الأصوات، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر، والأنف لا يستطيع أن يشُم إلا ما يمر به من الروائح، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع فى قبضتها من الأجسام. وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع فى دائرة حسها من الأشياء؛ ثم هى ترسل بهذا الإدراك إلى العقل، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف، جميل أو دميم، طيب أو خبيث، كبير أو صغير.

فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذى تعيش فيه؛ ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئًا من غير هذا العالم. فالمسموع والمنظور والمشموم

والمذوق والملموس، لا بد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس، حتى تستطيع أن تدركها، وأن تؤدى إدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه. وتفسير الشيء والحكم عليه هو « الفهم ». والفهم هو وظيفة العقل؛ وهو فرقٌ ما بين الإنسان والحيوان الأعجم.

العقل يعتمد على الحواس فى مدركاته

نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة : هى أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس، لأن الحواس هى روافده التى تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها؛ وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس، فلا يمكن أن تُوصِّل إلى العقل علمًا من غير عالمها.. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التى نراها بأعيننا، ونسمعها بآذاننا، ونذوقها بألسنتنا، ونشمها بأنوفنا، ونلمسها بأيدينا؟.. وبعبارة أخرى : هل نحن فى الواقع نرى بأعيننا كل شيء فى هذا الكون، ونسمع بآذاننا كل صوت، ونشم بأنوفنا كل ريح، ونلمس بأيدينا كل جسم؟.. لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه؛ لأنها إما بعيدة عن منالها، وإما خارجة

عن دائرة إدراكها؛ وهى فى كلتا الحالتين تعتبر «غَيْبًا» لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه.

هل كل ما غاب عن حواسنا غير موجود

فهل نستطيع إذن أن ندَّعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود؟ لا شك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك، ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجودًا، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع أن يحكم، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته، والتى يعتمد على إدراكها لذلك الغيب، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب، أو هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه. فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه؛ أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه، فإن العقل كذلك يظل جاهلًا به، فلا يستطيع أن يفسره ولا أن يحكم عليه؛ فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ، لأنه حكم قائم على غير علم.

ولنضرب لذلك مثلًا من الواقع.. لو أن قائلًا قال للناس قبل مائة عام مثلًا: إن هناك فى الكون سرًّا عجيبًا، يكون فى بعض الأجسام نورًا، وفى بعضها قوة، وفى بعضها حرارة، وفى

بعضها برودة، وفى بعضها صوتًا، وفى بعضها صورة؛ وأحيانًا يكون دواء ناجعًا، وأحيانًا يكون موتًا صاعقًا.. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر؟ فلما أن كشف العلم سر «الكهربا» ولمس الناس آثارها، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر. فهل كانت الكهربا معدومة ثم وجدت حين اكتشفها العلم؟.. لا؛ بل كانت موجودة فى الكون منذ خلق الله الكون، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن تدرك آثارها، فلما أدركتها الحواس عرفها العقل؛ وكذلك الشأن فى كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه.

وقديمًا عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر فى المدينة: «يا سارية الجبلَ، الجبل!!» يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل، فسمع سارية النداء فأخذ حِذْره من ذلك الكمين؛ ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا، بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت فى الراديو. إذن فهناك فى الكون أسرار لم تزل خافية على العقل، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة، لأنها لم تصل إلى عمله بعد، أو لأنه

غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله. وإن فيما يشكف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلاً على أن هنالك أسرارًا لم تُكشف لنا بعد؛ ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1].

ويعجبني في هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم - أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون - برجل جلس على شاطئ البحر، فجعل ينظر إلى البحر مبهورًا بعظمته، متطلعًا إلى ما فيه من أسرار، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة، فصاح مسرورًا: لا شك أن في هذا البحر سمكًا. ثم قذف له البحر مَرْجانة، فصاح مبتهجًا: ولا شك أن فيه مرجانًا. ثم قذف البحر له لؤلؤة، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك.. وهكذا، كلما رمى البحر له شيئًا ظن أنه كشف سرًا من أسرار هذا البحر. لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما في البحر من أسرار؟ لا شك أنه لا يستطيع، ولو قضى عمره على شاطئ البحر.. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

العقل لا يستطيع أن يحيط بكل ما فى الكون من أسرار

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى؛ هى أن العقل لم يحط بكل ما فى الكون من أسرار، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه، إنما هو رَجْم بالغيب وخَبْط فى الظلام؛ وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل. والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة؛ أما ما وراء عالم المادة - وهو عالم الغيب - فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئًا. فعلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقًا أبدًا. ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم فى مسألة «الإسراء والمعراج»، لأنها من عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس.

السمع وحده هو طريق الاتصال بعالم الغيب

من أى طريق - إذن - يأتى للعقل علم ما وراء المادة؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق «السمع».. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره؛ وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من

صادق أمين، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة، أى «بعالم الغيب». وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل؛ والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار، لأنهم يتلقونها بطريق الوحى الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين. فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسول والأنبياء عن عالم الغيب؛ وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئًا، لأنه خارج عن نطاق إدراكه.

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة. ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس؛ والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة.

فالسمع - إذن - هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار، والملائكة والجن، والحشر والحساب، وما إلى ذلك من «السَّمْعِيَّات» التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السمع وحده.

«والإسراء والمعراج» من هذه السمعيات.. فليس للعقل

مجال فى الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، وبالجواز أو بالاستحالة، لأنها غير داخلين فى نطاق علمه؛ فإذا تصدى للحكم عليها فقد تصدى للحكم فيما ليسَ له به علم فليس للعقل - إذن - إلا التصديق بما ورد عنها عن لسان الصادق الأمين، وهو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته، لأن ذلك شيء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه. أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج.

حكمة الإسراء والمعراج

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله: ﴿لِنُرِيه مِنْ آياتِنَا﴾ وذلك حيث يقول عزّ وجل من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الذى أسْرى بعَبْده ليلاً من المسْجد الحرام إلى المسجد الأقْصَى الَّذى باركْنا حوله لنُرِيَه من آياتنَا إنَّه هُو السَّميع البَصيرُ﴾[1] وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾؛ وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم: ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أخرى * عنْدَ سِدْرَة

(١) سورة الإسراء الآية ١.

الْمُنْتَهَى * عندها جنَّةُ المأوَى * إذ يغْشَى السدرةَ ما يغشَى * ما زاغ البصرُ وما طغَى * لَقَدْ رأى من آياتِ ربِّه الكُبْرى﴾[1].. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج.

فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج، هو أن يُرِىَ الله رسوله ما شاء من آيات قدرته، وعجائب صنعه، وعظيم ملكه؛ ليطمئن قلبه، وتستنير بصيرته، ويزداد يقينه.

درجات المعرفة

ويقول العلماء: إن المعرفة درجات ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين هو المعرفة التى تقوم على الخبر الصادق، وعين اليقين هو المعرفة التى تقوم على المشاهدة؛ وحق اليقين هو المعرفة التى تقوم على التجربة والممارسة.. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك فى خبره، فذلك علم اليقين؛ فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك، فذلك عين اليقين؛ فإذا أنت عشت فى هذا البلد فعاشرت أهله، وعرفت أموره ودرست أحواله، فذلك حق اليقين. كذلك إذا

---

(١) سورة النجم الآيات ١٣ - ١٨.

سمعت عن شخص، ثم رأيته، ثم خالطته وجربته، فقد تدرجت فى المعرفة به درجة بعد درجة؛ من علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، وهى الدرجة التى ليس بعدها درجة فى العلم ولا فى المعرفة.

تطلع النفس إلى الترقى فى درجات المعرفة

"والرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات، أو أنباء عالم الغيب، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى فى المعرفة من درجة «علم اليقين» إلى درجة «عين اليقين»؛ فقد حكى الله عن نبيه عُزَيْر أنه ﴿مَرَّ على قَرْيَة وهِى خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِهَا، قالَ أَنَّى يُحيى هٰذِهِ الله بعَد موتها فَأَماتَهُ الله مائَةَ عامٍ ثمَّ بعثَهُ قالَ كَم لبِثْتَ قال لبِثْتُ يَومًا أو بَعْضَ يومٍ قال بَلْ لبِثْتَ مائة عامٍ فَانْظُر إلى طَعامك وشَرابك لَم يَتَسَنَّه[1] وانظُرْ إلى حِمارِك ولِنَجْعلك آية لِلنَّاسِ، وانظُرْ إلى العِظَام كيْف نُنشِزُها[2] ثم نكسُوها لحمًا فلما تَبَيَّن لَهُ قَالَ أَعْلَم أَنَّ الله عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].. وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿ربِّ أرِنى

(١) لم يتسنه: لم تغيره السنين.

(٢) ننشزها: نعيد تركيبها ونضعها فى مواضعها.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

كيفَ تُحيي المَوْتى قال أوَ لَم تُؤمن قال بلى ولـكن ليـطمئنَّ قلـبي قال فَخُذ أربعةً من الطَّير فصرهُن إليك[1]، ثم اجعلْ على كل جبـل منهن جُزءًا ثم ادْعُهنَّ يأتينَك سعْيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[2]..

وحكى عن رسوله موسى أنه قال: ﴿ربِّ أرِنى أنْظُر إليـك قـالَ لَنْ تَرانى ولٰكِن انْظُرْ إلى الجَبَل فَإن استَقَرَّ مَكَانُه فَسَـوفَ تَـرَانِى؛ فَلَمَّـا تجلَّى ربُّه لِلْجَبل جَعَلَهُ دكًّا وخَرَّ موسى صَـعِقًا[3] فَلمَّـا أفـاق قـال سُبْحانَك تُبْتُ إليكَ وأنا أوَّل المؤمنين﴾[4]..

«ومحمد، صلى الله عليه وسلم، سيد الأنبياء وخاتم الرسل، وأكرم خلق الله على الله، فكان من كرامته عليه - سبحانه - أن خصه بتلك الرحلة المَلَكُوتية العجيبـة، لـيريه مـن آيـاته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه، ليرقى بـه مـن مـنزلة «علـم اليقين» إلى منزلة «عين اليقين». فكان صلى الله عليه وسلم هو الرسول الوحيد الذى يخبر أمته بخبر السمعيات ومـا وراء المادة عن عيان ومشاهدة، لا عن مجرد الخبر السماوى فحسـب. ولـذا كان ﷺ واضح البيان فى تعليمه، يكثر مـن التشـبيهات وضرب

---

(١) صرهن إليك: أى اجمعهن فى يدبك لتستوثق من حياتهن.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٣) سقط صريعًا من هول ما رأى.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

الأمثال وأنواع الاستعارة، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية، مصوَّرة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة. وتلك منزلةٌ من سمع ورأى، لا من سمع فقط.

ولقد كان الوحى ينزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية، فيخبر مثلا عن الذين يأكلون الربا بأنهم ﴿لا يقُومُون إلا كما يقوم الذى يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ من المَسّ﴾[1]؛ وعن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا بأنهم ﴿إنما يأكلونَ فى بطُونهم نارًا﴾[2]؛ ويخبر عن آل فرعون فى حياة البرزخ بقوله: ﴿النارُ يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا﴾[3].. وهكذا وهكذا مما نزل به الوحى على قلبه، صلى الله عليه وسلم. وتلك معارف جليلة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل، ويتشوفون إلى درجة فى المعرفة أعلى من الدرجة التى هم عليها. ولا شك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يتشوف كما يتشوفون، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره، تأدُّبًا معه، سبحانه وحياء منه؛ فأكرمه الله، سبحانه، بتلك الرحلة ليريه من آياته ما يشاء، ويطلعه من عجائب كونه على ما يريد، وليفضى إليه بما يشاء

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

(٢) سورة النساء الآية ١٠.

(٣) سورة غافر الآية ٤٦.

من أسراره جل شأنه»[1].

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن فى الدول الكبرى، حيث تستدعى الدولة سفيرها فتفضى إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة، وترسم له الخطة كما ينبغى أن تكون. وهو مَنْزَعٌ شعْرى جميل، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم؛ ﴿ولله المَثَلُ الأعْلَى وهُو العزيزُ الحكيمُ﴾[2].

هل لله مكان؟

وهنا يستشكل الأمر على بعض الناس فيقولون: وهل لله، عز وجل، مكان حتى يَعْرُج إليه فيه رسوله؟.. لقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن، لأننا الآن نرى الطيارات تقطع هذه الرحلة ذهابًا وإيابًا فى بضع ساعات؛ وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله ﷺ عُرج به إلى السماء، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث فى الوصول إلى الكواكب؛ وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ[3]، ومن صور الأعمال، ومن عجائب

---

(١) منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤: مقال للأستاذ البهى الخولى مع بعض تصرف.

(٢) سورة النحل الآية ٦٠

(٣) البرزخ: هو فترة ما بين الموت والنشور. وهو الفترة التى يقضيها الموتى فى قبورهم حتى يبعثوا يوم القيامة.

الكون حق، لأن خبره صادق لا يقبل الشك.. ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله فى حضرة ربه ذى الجلال، عند سدرة المنتهى؟ أليس معنى هذا أن الله، جل جلاله، مكانًا، وأنه - سبحانه - فى السماء السابعة أو فيما وراءها؟..

والأمر فى حقيقته غير مُشْكل، ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا، لأننا أخضعناه لمدركاتنا الحسِّية، وحكَّمنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر. فالله، سبحانه وتعالى، ليس بعيدًا عن رسوله حتى يقطع للقائه هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى، بل هو معه حيثما كان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ بل هو قريب من عباده جميعًا، يسمعهم إذا دعوا، ويجيبهم إذا سألوا، ويكون معهم أينما كانوا: ﴿مَا يكون مِنْ نَجْوَى ثلاثة إلاَّ هُوَ رابِعهُمْ، ولاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ،ولاَ أدْنَى مِنْ ذلكَ وَلاَ أكْثَرَ إلاَّ هُو مَعَهُمْ أيْنَما كانُوا﴾[1]؛ والذى يقول لرسوله: ﴿وإذا سَألَكَ عِبَادِى عَنِّى فإنِّى قَرِيب أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاع إذَا دَعانِ﴾[2] وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المؤمنين أن يبالغوا فى رَفْع أصواتهم، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر، فقال: «ارْبَعُوا على

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

أنفسكم[1]، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم».

فلم يكن الغرض من العروج - إذن - أن يلقى محمد ربه فى مكان بعينه؛ إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى، وليطَّلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقينًا على يقين، وإيمانًا على إيمان؛ وليستشعر المنزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التى أعدها له ربه.. وإلا؛ فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفايةٌ وغنَاء.

العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات

على أن العلم لم يكتشف بعدُ حقيقة السموات، ولا يزال من أمرها يخبط فى مَتَاهة عمياءَ على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود.. يقول الأستاذ حنفى أحمد فى كتابه «معجزة القرآن فى وصف الكائنات» ص ٥٠ : «إن استعمال المراقب الحديثة فى الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التى تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التى تدور حولها.. تسبح فى حَشْد عظيم من النجوم، تظهر فى

(١) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا فى رفع أصواتكم.

صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم «السديم أو مجموعة المجرّة».. وأن هناك - عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم التى تُرى فى المجرة - أجسامًا أخرى ترى على هيئة سُحب مضيئة قليلا، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة، وقد أطلق عليها اسم «الجزائر الكونية»، وهى السُّدمُ العظمى أو المجرات الخارجية، وهى عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة[1]، نظرًا لأبعادها الساحقة. وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة فى الفضاء.. فى طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليونًا ونصف مليون من السنين الضوئية، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء فى مليون ونصف مليون من هذه السنين، على حين هو يقطع فى السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال»[2].

ثم يقول فى ص ٥٤ : «وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة، إذ وُجد أن أقربها - ويدعى «سديم أندرو ميدا

(١) بلغت قوة مرصد «مونت ولسن» بأمريكا أن تدخل فى العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية.

(٢) تبلغ سرعة الضوء فى الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفًا من الأميال.

العظيم» - يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية».

ثم يقول بعد ذلك فى ص٦٢ : «وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطَّيْفى للمجرات الخارجية.. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار، وبسرعات عظيمة جدًّا تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة؛ فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار. ويقول السير جينز: إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية؛ وإن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده، أى إن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلا على ضعف قدره الأصلى».

ويؤكد الأستاذ حنفى أحمد فى ص٥٤ - على لسان السير جينز العالم الفلكى الإنجليزى - «أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية بالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة».

هكذا يقول العلم، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها

العلم حتى الآن. فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب؟ وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها، ولا يعرف العلم مداها؟ وكيف يكون الصعود فيها، وكيف يكون الهبوط، وكيف يكون الاستواء؟ أليس الأمر - إذن - أوسع من أن يُحدَّه العلم، وأعظم من أن يحكم فيه العقل، وأعمق من أن تحيط به الأفهام؟.. ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عمَّا يَصِفُونَ * .... وهُوَ الَّذِى فى السَّمَاءِ إلٰهٌ وَفى الأَرْضِ إلٰهٌ وَهُو الحَكِيمُ العَلِيمُ * وتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ومَابَيْنَهُمَا وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وإليهِ تُرْجَعون﴾[1].

البقعة المباركة

وبعد، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة، وهى الفترة التى يئس فيها رسول الله ﷺ من إيمان قريش، فذهب إلى ثقيف فردته أقبح رد، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة، يضرع إلى الله ويستعينه، ويشكو إليه ما يلاقى من صدود الناس عنه وسُخْرهم به وجرأتهم عليه؛ فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هيأ له هذه

(١) سورة الزخرف الآيات ٨٢، ٨٤، ٨٥.

الرحلة الملكوتية، ليطمئن قلبه، وليعلم أنه بعين الله دائماً أبدًا، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر، وإن تراكمت أمامه العقبات، واحْلَوْلَكت حوله الظلمات.

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان؛ وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولهما، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده، وكانا مهبط الوحى على رسله وأنبيائه. وقد مر، صلى الله عليه وسلم فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى، عليه السلام، وهى «طورسينا»، فصلى بها ركعتين؛ ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام، وهى «بيت لحم» فصلى بها ركعتين؛ ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل، فصلى بهم جميعًا؛ ثم عُرج به إلى السماء، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى.

حياة البرزخ

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم حياة «البرزخ»، وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة؛ فرأى الأنبياء، صلوات الله عليهم، ورأى منازلهم ودرجاتهم؛ ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها، يتلقاها آدم

أبو البشر فيفرح بطيبها ويحزن لخبيثها. ورأى حقائق الأعمال مصوَّرة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون؛ فرأى آل فرعون ومَن على شاكلتهم من الطغاة والظَّلمة، يُعرَضون على النار غُدُواً وعَشِيًّا؛ ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، لهم مشافر كمشافر الإبل، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقذفونها فى أفواههم فتهوى إلى بطونهم، ورأى الذين يأكلون الربا يُوطَئون بالأقدام فلا يستطيعون القيام، كلما هموا لينهضوا سقطوا؛ ورأى الزُّنَاة يتركون لحمًا طيبًا سمينًا، ويأكلون لحما مُنْتِنًا خبيثًا؛ ورأى اللاق يُدخلن على أزواجهن غير أولادهم معلَّقات بثُدِيِّهِنَّ؛ ورأى الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم..

ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة؛ ورأى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم؛ ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو، صلى الله عليه وسلم، فيها.. وتلك درجة رفيعة، ومنزله خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعًا.

وفى حضرة القُدُس الأعلى فرضت عليه الصلاة؛ ولعلها

كانت هى هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله؛ فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربه، وهى لب العبادة وجوهرها، وعماد الدين وركازُه.

الغلطة الشائعة

ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة؛ فكذبته قريش، واستفظع الناس الخبر حتى افتُتن به بعض من آمن. أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجبًا، فهذا الوحى ينزل عليه من السماء كل يوم؛ فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحى، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب، ليتلقى من الوحى ما شاء الله أن يُلْقِى إليه، وليرى ما شاء الله له أن يرى.

وهكذا كان هذا الحادث فتنة للناس؛ تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين. ولا يزال الناس إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله أن يكون، يخوضون فى شأن «الإسراء والمعراج»، فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به. والغلطة الشائعة بين الجميع أنهم يحكّمون فيه العقل، وليس للعقل طاقة بالحكم فيما ليس له به علم. ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده، وأبعدوه عما ليس

من شأنه، لما كان فى الأمر لبس ولا إشكال. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿هَاأَنْتُمْ هؤُلاء حاجَجْتُمْ فيماَ لكُمْ بهِ عِلْمٌ، فلِمَ تُحَاجُّون فِيمَا ليْسَ لكُمْ بهِ عِلْمٌ والله يعْلَمُ وأنْتُمْ لاَ تعْلمُون﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ٦٦.